﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 102 - 103]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ الاعتبار من قصصِ الأخيار

وردت الآيتان خطابًا لرسول الله ﷺ مبيِّنتيْن له أمورًا من أخبار الغيب السّابقة وحيًا إليه، وتعليمًا له لما تضمَّنته من العبرة والاتِّعاظ، وفيهما تعريض لقريش ومعاصري الرّسول ﷺ لبيان العظة والاعتبار بأحوال مَن سبق من الأمم، فلا يصيبه ضجرٌ أو حُزنٌ لما يفعله هؤلاء معه، ومع مَن آمن معه من صحابته الكرام رضي الله عنهم، فتلك شنشنة نعرفها من المكذِّبين دائمًا، فالمناسبة بين هاتيْن الآيتيْن، والسّابق هو بيان الاعتبارِ، من قصص الأخيارِ، لتسليةِ المخاطَب، وإثبات صِدْقه فيما أخبر عن ربِّه تعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنۢبَآءِ﴾: أصلُ (نبأ): الإتيانُ من مكانٍ إلى مَكانٍ. يُقالُ لِلَّذي يَنْبأُ من أرضٍ إلى أرْضٍ نابِئٌ. وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ورَجُلٌ نابِئٌ مِثْلُهُ. ومِنْهُ النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّهُ يأتي من مَكانٍ إلى مَكانٍ، والنَّبْأةُ: الصَّوْتُ؛ لِأنَّ الصَّوْتَ يَجيءُ من مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومَنْ هَمَزَ النَّبيَّ فلأنَّهُ أنْبأ عَنِ الله تعالى[1]. والنُّبوَّةُ: سِفارَةٌ بَيْنَ الله وبَيْنَ ذَوي العُقولِ من عِبادِهِ، لإزاحَةِ عِللهم في أمْرِ مَعادِهم ومَعاشِهم. وتَنَبَّأ فلان: ادَّعى النُّبوَّة[2]. وأصلُ الخَبَرِ: الصِّدْقُ؛ أيْ: الموافَقَةُ للواقِعِ، فإذا قيلَ: أتاني نَبَأُ كذا، فمعناهُ الخَبَرُ عَنْ حالِهِ في الواقِعِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (نبأ).
(2) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (نبأ).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/310.

والأنْباءُ: جَمْعُ نَبَأٍ، وأنباءُ الغَيْبِ: الأخبارُ المُغَيَّبَةُ عَنِ النّاسِ أو عَنْ فريقٍ مِنْهُمْ[1]. والمقصود بالأنباء في الآية: جَمْعُ نَبَأٍ، وهو الخَبَرُ الَّذي له أهميَّةٌ.

2) ﴿أَجْمَعُوٓاْ﴾: أصلُ (جمع): يدلُّ على تَضامٍّ الشَّيءِ[2]، يُقال: جَمَعَ الشَّيءَ عَنْ تَفْرِقة يَجْمَعُه جَمْعًا، وجَمَّعَه وأجْمَعَه فاجتَمع. وكَذَلِكَ تجمَّع واسْتَجمَعَ. والمَجْموعُ: الَّذي جُمع من هاهنا وهاهنا، وإن لَم يُجْعَلْ كالشَّيْءِ الواحِدِ[3]. والإجْماعُ: إحكامُ النيّةِ والعَزيمةِ، أجْمَعْت الرَّأْي وأزْمَعْتُه وعزَمْت عَلَيْهِ بِمَعْنًى[4]. والمقصود بقوله: ﴿أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ في الآية: أحكَموا تدبيرهم؛ أي: اتفقوا على أن يُلقوا يوسف في غيابَة الجُبِّ.

3) ﴿أَمْرَهُمْ﴾: أصْلُ: (أمر): يدُلُّ على أمْرٍ مِنَ الْأُمورِ[5]. يُقالُ: أمْرُ فلانٍ مستقيمٌ وأُمورُهُ مستقيمةٌ. والأمْرُ: الحادِثَةُ، والجَمْعُ أُمورٌ، لا يُكَسَّرُ على غَيْرِ ذَلِكَ[6]. والمُرادُ بالأمْرِ في الآيةِ: الشَّأْنُ والفِعْلُ، والمقصودُ مِنه المَكْرُ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تثبيتُ الدَّعاةِ وتوطينُهم على الحقِّ تسليةٌ وتصبير

في هاتيْن الآيتيْن إشارة منه ﷻ بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: النّبأ العالي الرُّتبة الَّذي قصصناه يَعجز البلغاء من حملته ورواته فكيف بغيرهم؟ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ أيْ: أخباره الَّتي لها شأن عظيم، ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ﴾ إيحاءً شريفًا يبقى معك، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾؛ أيْ: لدى إخوة يوسف ﷺ وهم يجمعون مكرهم وخُبثهم للخلاص منه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (نبأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع).
(3) ابن سيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أمر).

إمّا نفيًا وإمّا قتلًا، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ كلُّهم وجلُّهم لا عهد لهم ولا إيمان لديهم، يستعملون في مراضي الله تعالى ونفع العامَّة، وأنت يا مُحمّد لا تُذهب نفسك حسراتٍ على مَنْ لم يُذعن للإيمان، ويتَّخذه طريقه إلى نجاته الأخرويَّة، "وهذه الآية تعريضٌ لقريش وتنبيه على آية صدق مُحمّد، وفي ضمن ذلك الطّعن على مكذبيه"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

علَّة الفصل في: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ﴾:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ جملة مُستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، وهو ما يُعرف بالاستئناف النَّحويِّ، وهو كلُّ كلام منقطع عن غيره وكان مبتدأً به، وهو عند النُّحاة قريبٌ من الجملة الابتدائيَّة، ويأتي مُقترنًا بالواو وغير مُقترن بها، وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب فتأتي مفصولةً، وجاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ تعقيبًا بعد ختام قصَّة يوسف عليه السلام، وبيان الاعتبارِ من نهايتها، موجّهًا فيها الخطاب إلى رسول الله ﷺ؛ ففُصلت عمّا قبلها لكونها ابتداءَ كلامٍ جديدٍ.

ابتداءُ كلامٍ جديدٍ للاعتبارِ بالسّابق والاسترشاد للّاحقِ

نكتةُ استعمالِ الإشارةِ للبعيدِ:

الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ لما "سبق من نبأ يوسف، البعيد درجة كماله في جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتّى صار مُعجِزًا"[2]، واستعمال اسم الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ هنا لتعظيم أمر هذه الأنباء الموحاة إليه ﷺ، وأنَّها من الأهميَّة بمكان، ولعُلوّ رتبتها ورفعة قدْرها، و"لتَمْييزِ الأنْباءِ أكْمَلَ تَمْييزٍ لِتَتَمَكَّنَ من عُقولِ السّامِعينَ لِما فيها مِنَ المَواعِظِ"[3].

الأنباءُ العظيمةُ الشَّأنِ لها مكانةٌ في النَّفسِ عاليةُ الشَّأن

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/285.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.

معنى حرف ﴿مِنۡ﴾ ودلالته:

بعضُ أنباءِ الغَيبِ كافيةٌ لإزالةِ الرَّيب

حرف ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ إمّا أن تكونَ لبيان الجنس، والمُراد كون هذه الأنباء من جنس الأمور الغيبيَّة الَّتي ما كان يعلمها النّبيّ ﷺ، حتَّى أرشده الله تعالى إليها، وإمّا أن تكون للتَّبعيض، فإنَّ ما أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ إنَّما هو بعض قصَّة يوسف عليه السلام مع إخوته.

فائدةُ ذكر النَّبأ دون الخبر:

الإشارةُ إلى ما سيقع في قابل الأيّام من محاولةِ قتلٍ وطردٍ

الأنباء: جمع نبأ، وهو لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المُخبَر، ويجوز أن يكون المُخبَر بما يعلمه وبما لا يعلمه[1]، والنَّبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به عِلمٌ أو غَلَبَة ظنٍّ[2]، واستعمال لفظ (أنباء) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ دون (أخبار)؛ لبيانِ أهمّيَّة هذا النَّبأ في حياة المصطفى ﷺ، فقد كان فيه إشارةٌ عظيمةٌ لما سيكون معه مع قومه حين إخراجه من مكَّة، ومحاولة قتله، كما كان ليوسف عليه السلام ابتداءً وانتهاءً، "وفيه أيضًا إيذانٌ بأنَّ ما ذُكر من النّبأ هو الحقُّ المطابق للواقع، وما ينقُله أهلُ الكتاب ليس على ما هو عليه، يعني أنَّ مثلَ هذا التّحقيقِ بلا وحيٍ لا يُتصوّر إلّا بالحضور والمشاهدة، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي"[3].

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾:

الله تعالى يعلم كلَّ ما غاب وخفي

تعريف لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ بـ (أل) مرادٌ به العهد العلميُّ أو الحضوريُّ؛ بمعنى عدم سبق ذِكر للمعرَّف بـ (أل) لا صراحةً ولا كناية، وكذلك هنا إلّا أنَّ السّامع يدرك المقصود حال النطق به؛ فـ(أل) في ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ للعهد؛ ولكن ليس صريحًا ولا كنائيًا، إلّا أنّا علمنا المقصود

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38، 37.
(2) الرّاغب، المُفردات: (نبأ).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/309، 308.

به وأحضرناه في الذِّهن حضورًا تامًّا، ومن هنا سُمّي عهدًا حضوريًّا أو علميًّا، ومنهم مَن جعله تعريفًا مُرادًا به الاستغراق العُرفيّ، وهو ما دلَّ على جميع أنواع الغيب، فأفاد العموم والشُّمول حتَّى في حالة الإفراد؛ لأنَّ المُعرَّف بـ (أل) يستوي في حالتي الإفراد والجمع.

سرُّ التَّعبير بالإيحاء دون الإنزال:

الأنسبُ في المعرفة الإشاريَّة استعمالُ الإيحاءِ لا الإنزال

آثر النَّظم التّعبيرَ بالإيحاء دون الإنزال في قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ﴾، و"أصل الوحي: الإشارةُ السّريعة، ولتضمُّن السّرعة قيل: أمرٌ وحْيٌ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز والتّعريض"[1]، بخلافِ النُّزول؛ فهو في الأصل انحِطاطٌ مِن عُلوٍّ[2]، وذلك أنَّ التَّعبير بلفظ الوحي هو الأنسب بالمقام، لكونه يعتمد الإشارة السَّريعة المعبِّرة عمّا ذكره الله تعالى لنبيِّه ﷺ، لما فيه من الإشارةِ إلى ما سيكون له ﷺ، وهو المناسب للغيب كذلك، ولمّا كان "الغَيْب ما غابَ عَنْ عِلْمِ النّاسِ، وأصْلُهُ مَصْدَرُ (غابَ)؛ فسُمّيَ بِهِ الشَّيْءُ الَّذي لا يُشاهَدُ"[3] ناسبه التَّعبير بالإيحاء.

دلالة حرف الجرّ في: ﴿إِلَيْكَ﴾:

نبيُّنا الكريم هو قِبلةُ الوحي الشَّريف ومُنتهى العلم المُنيف

معلوم أن (إلى) تأتي لانتهاء الغاية في مقابلة (من)، وقد تأتي بمعنى (مع)، كما تأتي للتَّبيين، وهي المعلَّقة في تعجُّب أو تفضيل بحبٍّ أو بغضٍ، إلّا أنَّ مجيئها في قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ موافقة لـ(اللّام)، والمعنى: نوحيه لك يا مُحمّد لا لغيرك، وقيل: للانتهاء؛ أيْ: نُنهيه إليك تخصيصًا؛ لنُعلِّمَك إيّاه، ولتَعلَمه أنت إذا كان مُغيّبًا عنك. وتَذْكيرُ ضَميرِ ﴿نُوحِيهِ﴾ لأجْلِ مُراعاةِ اسْمِ الإشارَةِ[4]، والأنسبُ مقامًا وبلاغةً حملُ الحرف على ظاهره، فإنَّ الإيحاءَ مُنتهٍ إليه ﷺ؛ ففيه معنى الخصوص.

(1) الرّاغب، المُفردات: (وحي).
(2) الرّاغب، المُفردات: (نزل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.

دلالة الواو: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاليّة؛ أيّ: لم تكن موجودًا حال فعلوا ما فعلوا يا مُحمّد ﷺ فهي حاليَّة لكونها تمام التَّعجُّب.

معنى (ما) ودلالتُها:

نصٌّ على غياب المصطفى دليلٌ على إرادةِ الكلام المُتّقى

﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ نافيةً ولها صدر الكلام، وهي تدخل على الأسماء والأفعال، وفي الأسماء تُرفع وتُنصب مثل (ليس) عند الحجازيّين، وعلى الأفعال بلا عمل، وتدخل على الماضي بمعنى (لم) مثل هذه الآية، والمعنى: لم تكن موجودًا يا مُحمّد حال فكرهم بأخيهم عليه السلام، كما تدخل على المضارع لتُعطي معنى نفي الحال كالحرف (لا)، تقول: ما يخرج إلّا علي؛ أيّ: لا يخرج فهنا نفيتَ أن يكون قد حصل منه خروج في الحال، والنَّفي هنا أفاد أنَّ الآية أرادت النَّصَّ على نفي كونه عليه السلام معهم - وهو أمر معلوم -؛ بقصد نفي أن يكون افترى هذا القرآن من عنده.

بلاغةُ التَّهكُّم في نفي الشَّكِّ:

الشَّكُّ في المعلومِ مُـؤذِنٌ بسقوط التَّكليف ممّا هو معلوم

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ نفى سبحانه أن يكون نبيُّه ﷺ حاضرًا في زمنِ يوسف عليه السلام، وهذا أمرٌ معلوم، لكنَّ القصدَ منه هو التَّهكُّمُ "بالكفّار فكأنّهم يشكّون في ذلك فيدفع شكّهم"[1]، ومعنى التَّهكُّم: "أنه تعالى جعل المشكوك فيه كونه عليه السلام حاضرًا بين يديّ أولاد يعقوب عليه السلام ماكرين، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، وإنّما الّذي يمكن أن يرتاب فيه المرتاب قبل التّعرّف هو تلقّيه من أصحاب هذه القصّة، وكان ظاهر الكلام أن ينفي ذلك، فلمّا جعل المشكوك ما لا ريب فيه؛ لأنَّ كونه عليه السلام لم يلقَ أحدًا، ولا سمع، كان عندهم كفَلَق الفجر، جاء التّهكّم البالغ، وصار حاصل المعنى: قد علِمتم يا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/309، 308.

مُكابِرة أنّه لم يكن مُشاهدًا لِمَن مضى من القرون الخالية، وإنكاركم لِما أخبر به يُفضي إلى أن تُكابروا بأنَّه قد شاهد مَن مضى منهم"[1].

دلالة استعمال الفعل ﴿كُنتَ﴾:

ما ذَكَـر النّبيّ الكريم من النّبأ هو الحقُّ المطابق للواقع

استُعمل فعل ﴿كُنتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ بقصدِ نفي العامّ المُطلق لنفي حضوره ﷺ أحداث هذه القصَّة، فهو نفيٌ للكينونة العامّة، ولا رأى شيئًا ﷺ منها البتّة، فليس "المُرادُ مُجرّدَ نفيَ حضوره ﷺ في مشهد إجماعِهم ومكرِهم فقط، بل في سائر المشاهدِ أيضًا، وإنّما تخصيصُه بالذّكر لكونه مطّلعَ القصّة وأخفى أحوالِها كما يُنبئ عنه قوله: ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾، والخطابُ وإن كان لرسول الله ﷺ؛ لكنّ المُرادَ إلزامُ المُكذّبين، والمعنى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾؛ إذ لا سبيلَ إلى معرفتك إيّاه سوى ذلك، إذْ عدمُ سماعِك ذلك من الغير، وعدمُ مطالعتِك للكُتب أمرٌ لا يَشكُّ فيه المكذّبون أيضًا، ولم تكن بين ظَهرانيهم عند وقوعِ الأمر حتّى تعرِفه كما هو فتبلّغَه إليهم"[2].

فنُّ المذهب الكلاميّ:

دليـلٌ جَـلَّ عن مثيلٍ، ويا ليتهم يعلمون

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ فنٌّ بديعيٌّ يُعرف بالمذهب الكلاميِّ[3]، والمعنى: "﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أيْ: عند إخوة يوسف ﷺ في هذا النّبأ الغريب جدًّا، ﴿إِذۡ﴾، أيْ: حين ﴿أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ على رأي واحد في إلقاء يوسف ﷺ في الجُبِّ بعد أن كان مُقسَّمًا ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾؛ أيْ: يُدبّرون الأذى في خفية من المكر وهو القتل؛ لتعرف ذلك بالمشاهدة، وانتفاء تعلّمك لذلك من بشر مثل انتفاء كونك لديهم في ذلك الحين، ومن المُحقّق لدى كلِّ ذي لُبٍّ أنّه لا علم إلّا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/64.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/309، 308.
(3) المذهب الكلاميّ هو: إيرادُ المتكلِّم حجَّةً لما يدَّعيه على طريق أهل الكلام. يُنظر: الخطيب، الإيضاح: 6/65.

بتعليم، فثبت أنَّه لا مُعلّم لك إلّا الله كما علّم إخوانك من الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، فيا له من دليل جلّ عن مثيل، وهذا من المذهب الكلاميّ، وهو إيراد حُجّة تكون بعد تسليم المُقدّمات مستلزمة للمطلوب، وهو تهكُّم عظيم ممَّن كذّب النّبيّ ﷺ"[1].

بلاغةُ استعمالِ ﴿لَدَيْهِمْ﴾ دون (عندهم):

مَكرٌ مات قبل أصحابه، وميراثُ نبوَّةٍ بقي في أحبابه

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ "(لَدُنْ) و(لدَى) أخصّ من (عند)؛ لأنّه يدلُّ على ابتداء نهاية، نحو: أقمتُ عنده من لَدُن طلوع الشّمس إلى غروبها، فيوضع (لَدُن) موضع نهاية الفعل، وقد يوضع موضع (عند) فيما حكي، يُقال: أصبتُ عنده مالًا، ولَدُنه مالًا. قال بعضهم: (لَدُنْ) أبلغ من (عند) وأخصّ"[2]، فاستعمال لدى القريب معناها من (لَدُن) يدلُّ على أنَّ النَّفي انصبَّ على مكانِ المكر بيوسف عليه السلام، وهو يدلُّ على النَّفي المنتهي إلى ذلك المكان انتهاءً كاملًا، أمّا (عند) فهي "لفظٌ موضوعٌ للقُرْب، فتارةً يُستعمل في المكان، وتارةً في الاعتقاد، نحو أن يُقال: عِنْدي كذا، وتارةً في الزّلفى والمنزلة"[3].

معنى ﴿إِذْ﴾:

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لماضي الزَّمان يُضاف للجملتيْن، وهي في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بمعنى (حين)، والمُراد: وما كنتَ لديهم حين أجمعوا أمرهم.

بلاغة استعمال ﴿أَجْمَعُوٓاْ﴾ دون (جمعوا):

فكَّروا وعزموا وجزموا على فعلتهم والله أبطلها

الجَمْع: ضمّ الشّيْء بتقريب بعضه من بعضٍ، يُقال: جَمَعْتُهُ فاجْتَمَعَ، وأجْمَعْتُ كذا أكثر ما يُقال فيما يكون جمعًا يُتوصَّل إليه بالفكرة قال تعالى: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ [طه: 64]، وقيل: جمعوا

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/224.
(2) الرّاغب، المُفردات: (لدُن).
(3) الرّاغب، المُفردات: (عند)، والزّركشيّ، البرهان: 4/290 - 292، 397، 396.

آراءهم في التّدبير عليه[1]، وهؤلاء عزموا وجزموا على فعلتهم تلك ولهذا يُقال: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ ولا يُستعمل ذلك إلّا في الأفعال الّتي قويت الدّواعي إلى فعلها[2].

نكتةُ التَّعبير عن صنيعهم بالأمر:

مـهـمـا بـلـغـت عزيمةُ الماكرين فكفاية الله غُنيةُ الفائزين

الأمر في قوله تعالى: ﴿أَمۡرَهُمۡ﴾ هو إلقاء يوسف ﷺ في الجُبِّ، و"الأَمْرُ: الشّأن، وجمعه: أُمور، ومصدر أمرتُه: إذا كلّفته أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عامٌّ للأفعال والأقوال كلها، وهو التّقدّم بالشّيء سواء أكان ذلك بقولهم: افعل وليفعل، أم كان ذلك بلفظ خبر، وقيل: أمِرَ القومُ: كثروا، وذلك لأنّ القوم إذا كثروا صاروا ذا أمير من حيث إنّهم لا بدّ لهم من سائس يسوسهم"[3].

ولمّا كان تدبيرهم وفعلهم هذا له شأن خطير على حياته وحياة أبيه ﷺ وتآمرهم جميعًا عليه؛ صار خبرًا يتناقله النّاس إلى يوم الدّين؛ لخساسة ما فعلوه، وحقارة ما ارتكبوه، والأمر هنا مناسبٌ لإعدادهم وعزيمتهم على هذا الأمر، كأنّهم لم يدعوا شيئًا من أمر مكرهم إلّا أحضروه.

موقع جملة ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ جملة حاليَّة من الضّمير في قوله: ﴿أَجۡمَعُوٓاْ﴾ مبيِّنة حال مكرهم وتدبيرهم.

فائدة تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفعلّي:

اختصاصُ قومٍ بمكرٍ أمارةُ بؤسٍ وسوء فكر

أفاد تقديم المُسنَد إليه في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ على خبره الفعليِّ التَّخصيص، فالمُسند الفعليّ إذا تقدَّم عليه المُسنَد إليه أفاد تخصيصًا أو تقويةً للحُكم بحسب القرائن، وهنا أفاد التَّخصيص باعتبارِ السّياق، إذ لم يصدر المكر إلّا عنهم.

(1) الرّاغب، المُفردات: (جمع).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/285.
(3) الرّاغب، المُفردات: (أمر).

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿يَمْكُرُونَ﴾:

من علمَ مغفرةَ الله لمَن مَكر؛ زال عنه القنوط بكلِّ الفِكَر

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ يُفيد استحضار صورة هذا المكر وقت وقوعه، وما اجترمه هؤلاء الإخوة في حقِّ أخيهم ﷺ، ولم يقصَّ الله علينا ﷻ تلك القصَّة، وبذلك التّعبير الدّاعي إلى الاستحضارِ؛ لنعيّرهم بها، ولكن قص الله علينا نبأهم لئلّا يقنط عبده[1].

نكتةُ حذف متعلّق فعل ﴿يَمْكُرُونَ﴾:

الإيجازُ يُحقّق المعاني ويصدُر عن المطلوبِ بأوجز المباني

في قوله تعالى: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ طوي ذِكرُ هذا المكر وإن كان معلومًا بدلالة السّياق فيما سبق، وهو إلقاؤهم يوسف ﷺ في غيابات الجُبِّ، فحذف المتعلِّق أو المفعول إيجازًا لهذا، أو أنَّ ذِكر هذا المُتعلّق يوهم خلاف المقصود فحذف أيضًا، أو أنَّه معلوم بدلالة الحال لجريان الحديث عنه فيما سبق من خلال تدبيرهم وحواراتهم مع أبيهم ﷺ.

تعيينُ مرجعِ الضَّمائرِ في الآية:

ذِكرُ الضَّمائر لمجموعٍ واردٍ في قصَّةِ ابتكارٌ قرآنيٌّ وتجديدٌ خطابيٌّ

مرجع الضّمائر في ﴿لَدَيْهِمْ﴾ و﴿أَمْرَهُمْ﴾ و﴿وَهُمْ﴾ وهي كلُّها ضمائر الغائبين؛ فإنَّه لا مرجع لها إلّا ما اشتملت عليه السّورة من مكر إخوة يوسف ﷺ به، ثمَّ مكرهم بعد ذلك في رميه إيّاه بالسَّرقة، فالضّمير للإخوة وليوسف كما يفهم من السّورة، وإن لم يذكر المرجع قبل الضَّمير قريبًا إليه مُرتبطًا به[2]، وقد ذهب ابن عاشور إلى أنَّ الضَّمائر راجعةٌ إلى جميع مَن ورد ذِكره في القصَّة فقال: "وضَمائرُ ﴿لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ عائِدَةٌ إلى كُلِّ مَنْ صَدَرَ مِنْهُ ذَلِكَ في هَذِهِ القِصَّةِ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ على طَرِيقَةِ التَّغْلِيبِ؛ يَشْمَلُ إِخْوَةَ يوسُفَ ﷺ، والسَّيّارَةَ، وامْرَأَةَ العَزِيزِ،

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/283.
(2) تمّام حسّان، البيان في روائع القرآن، ص: 232.

ونِسْوَتَها"[1]. ثمَّ يختم كلامه ببيان العبرة من هذا كلِّه فيقول: "وهَذِهِ الجُمْلَةُ اسْتِخْلاصٌ لِمَواضِعِ العِبْرَةِ مِنَ القِصَّةِ. وفيها مِنَّةٌ على النَّبيِّ ﷺ، وتَعْريضٌ لِلْمُشْرِكينَ بِتَنْبيههِم لِإعْجازِ القُرْآنِ مِنَ الجانِبِ العِلْميِّ، فإنَّ صُدورَ ذَلِك من النّبي ﷺ الأُمّيِّ آيَةٌ كُبْرَى على أنَّهُ وحْيٌ مِنَ اللّه تَعالَى"[2].

دلالة الواو: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ عاطفة على جملة ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ باعْتِبارِ إفادَتِها أنَّ هَذا القُرْآنَ وحْيٌ مِنَ اللّه، وأنَّهُ حَقيقٌ بِأنْ يَكونَ داعيًا سامِعيهِ إلى الإيمانِ بِالنَّبي ﷺ. والجملة انْتِقالٌ من سَوْقِ هَذِهِ القِصَّةِ إلى العِبْرَةِ بِتَصْميمِ المُشْرِكينَ على التَّكْذيبِ بَعْدَ هَذِهِ الدَّلائِلِ البَيِّنَةِ"[3].

إصرارُ الكافرِ لا ينفعُه صاغرٌ ولا كابرٌ

معنى (ما) في: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

﴿وَمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ نافية؛ والمعنى: لم تكن موجودًا يا مُحمّد حالَ مكرهم بأخيهم ﷺ، كما تدخل على المضارع لتُعطي معنى نفي الحال كالحرف (لا) تقول: ما يخرج إلّا عليّ؛ أي: لا يخرج فهنا نفيت أن يكون قد حصل منه خروج في الحال، والمعنى: ليس أكثر النّاس بمُصدِّقين دعوتك ورسالتك يا مُحمّد.

حقيقة الكثرة من البَشَر مُرَّةٌ لا تُحرِّك البِشَر

بلاغة التَّعريض ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

المُراد بالأكثريَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ العموم، والسّبب في التَّعبير بالأكثريَّة "أنَّهم في غفلة عن التَّفكُّر في الدَّلائل الدّالَّة على وجود الصّانع وتوحيده"[4]، والأكثر: القسم الزّائد على القِسم الآخر من الجملة، ونقيضه الأقلُّ، و(القلَّة) والكثرة

ذمُّ أكثرِ النّاس لعدمِ إيمانِهم إيماءٌ بمدحِ القلَّة المؤمنة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(4) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/77.

يستعملان في الأعداد، ثم يُستَعار كلٌّ واحد من الكثرة والعظم ومن القلَّة والصِّغر للآخر، ويُستعملان في الكمّيّة المنفصلة كالأعداد[1].

وهي هنا كناية عن الجمع الغفير من هؤلاء النّاس الّذين لا يؤمنون، وهم العدَّة الزّائدة على مقدار غيرها، والتّعبير بالأكثريَّة لمدحِ الأقلّ بطريق التَّعريض.

معنى التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجنس مقصود به الاستغراق، وإنَّما أُريد بنفي الإيمان عن أكثر النّاس إضافة الأكثريّة لهم، فهو لفظٌ دالٌّ على الاستغراق، وأخرجه عن الاستغراقِ إضافةُ (أكثر) لهم.

النّـاس اسـمٌ جـامـعٌ لأفـرادِه من الإنس

فائدةُ الاعتراض:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ جملةٌ "في مَوْضِعِ الحالِ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ اسْمِ (ما) وخَبَرِها، و﴿وَلَوۡ﴾ هَذِهِ وصْلِيَّةٌ، وهيَ الَّتي تُفيدُ أنَّ شَرْطَها هوَ أقْصَى الأسْبابِ لِجَوابِها. وجَوابُ (لَوْ) هوَ ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ مُقَدَّمٌ عَلَيْها، أوْ دَليلُ الجَوابِ، والحِرْصُ: شِدَّةُ الطَّلَبِ لِتَحْصيلِ شَيْءٍ ومُعاوَدَتِهِ"، ومفاد الاعتراض هنا: أنَّ الهداية بيد الله ﷻ وحده لا غيره[2].

الهداية بيد الله ﷻ وحدَه

نكتةُ حذف متعلِّق ﴿حَرَصۡتَ﴾:

حُذف متعلِّق الفعل ﴿حَرَصۡتَ﴾، وهو مُقدَّر بشبه الجملة من الجارِّ والمجرور، والتّقدير: ولو حرصت على إيمانهم، وبالغت في إرشادهم بمصدِّقين لك لتصميمهم على الكفر، وهذه الجملة تسلية للنّبيّ ﷺ إلى جانب ما في حذف المتعلِّق من الإيجاز والاختصار بحذف ما هو معلوم، وبيان أنَّ القصد هو إثبات الفعل للفاعل دون النَّظر إلى متعلِّقٍ للعلم به.

لا تُـبـالـغ في إرشاد مَن أدمن الـكـفـر وعـشـقَ العناد

(1) الرّاغب، المُفردات: (كثر)، (قلَّ).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.

معنى الباء في: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾:

عـليـك بـعـرض دعـوتـك بإتقان ولا يـضـرّك مَـن صدَّ وغوى

الباء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ حرف جرٍّ أفاد التَّأكيد، دخلت لتأكيد الاتِّصال؛ أيْ: لتأكيد ارتباط الفعل بالفاعل؛ لأنَّ الفعل يطلب فاعله طلبًا لا بُدَّ منه، والباء توصل الأوّل إلى الثّاني، فكأنَّ الفعل يصل إلى الفاعل، وزادته الباء اتِّصالًا[1]، والمُراد: ولو حرصتَ يا مُحمّد أن يؤمنوا فلن يؤمنوا.

نكتة حذف متعلَّق ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾:

الضّياع والكُفر هما نتيجة عدم النَّظر في الدَّلائل والبراهين

حذف ما يتعلَّق بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾، والتّقدير: بمؤمنين لك أو بدعوتك ورسالتك، أو ما تدعوهم إليه من الإيمان وإقامة الدَّلائل والبراهين على صدق دعواك.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

النّبأ والخبر:

النَّبأُ خبرٌ بارزٌ ذو شـأنٍ، والـخـبر أعمُّ منه

أصل النَّبأ: الإتيانُ من مَكانٍ إلى مَكانٍ. يُقالُ لِلَّذي يَنْبَأُ من أرْضٍ إلى أرْضٍ نابِئٌ. وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ورَجُلٌ نابِئٌ مِثْلُهُ. ومن هَذا القياسِ: النَّبَأُ: الخَبَرُ، لأنّه يَأْتي من مَكانٍ إلى مَكانٍ. والمُنْبِئُ: المُخْبِرُ. وأنْبَأْتُهُ ونَبَّأْتُهُ. ورَمَى الرّامي فأنْبَأ، إذا لَم يَشْرِم، كَأنَّ سَهْمَهُ عَدَلَ عَنِ الخَدْشِ وسَقَطَ مَكانًا آخَرَ. والنَّبْأةُ: الصَّوْتُ. وهَذا هوَ القياسُ، لِأنَّ الصَّوْتَ يَجيءُ من مَكانٍ إلى مَكانٍ[2]، بينما يدلُّ الخَبَرُ على العِلْمِ بِالشَّيْءِ. تَقولُ: لي بِفُلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ. واللّه تَعالَى الخَبيرُ؛ أي: العالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ[3].

فالفرق بين النّبأ والخبر: أنّ النّبأ لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المُخبَر، ويجوز أن يكون المُخبَر بما يعلمه وبما لا يعلمه ولهذا

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/252.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).

يُقال: تُخبرني عن نفسي، ولا يُقال: تُنبئني عن نفسي، وإنّما يُطلق عليه هذا لما فيه من عظم الشّأن، والإنباء عن الشّيء أيضًا قد يكون بغير حمل النّبأ عنه، تقول: هذا الأمر يُنبئ بكذا؛ ولا تقول: يُخبر بكذا؛ لأنَّ الإخبار لا يكون إلّا بحمل الخبر[1].

المكر والخديعة:

المكر كيدٌ مع فكرٍ وتدبير، والخديعة غشٌّ وإخفاءُ حقٍّ بقصد تحقيق مصلحةِ الخادع

يدلُّ المَكْرُ على الاِحْتيالُ والخِداعُ[2]، والمكر مثل الكيد في أنّه لا يكون إلّا مع تدبُّر وفكر، والمكر أيضًا تقدير ضرر الغير مِن أن يُفْعَل به، وأصل المكر في اللّغة الفَتْل، وذلك أنَّ الماكر يُنْزِل المكروه بالمكور به من حيث لا يعلم، فلمّا كان هذا سبيل ما توعَّدهم به مِنَ العذاب؛ سمّاه مكرًا، ويجوز أن يُقال: سمّاه مكرًا؛ لأنَّه دبّره وأرسله في وقته[3].

وأمّا الخديعة: فهي تدلُّ على إخْفاءِ الشَّيْءِ، قالَ: وبِذَلِكَ سُمِّيَتِ الخِزانَةُ المَخْدَعَ[4]، وهي "إظهار ما ينطق خلافه، أراد اجتلاب نفعٍ أو دفع ضرٍّ، ولا يقتضي أن يكون بعد تدبُّرٍ ونظر وفكر، والخديعة اسم لفعل المكروه بالغير من غير قهر؛ بل بأن يريد بأنّه ينفعه، ومنه الخديعة في المعاملة، والخدع: أن يستر عنه وجه الصّواب فيوقعه في مكروه، وأصله من قولهم: خدع الضّب إذا توارى في جُحْره، وخدعه في الشّراء أو البيع إذا أظهر له خلاف ما أبطن فضرَّه في ماله، والخدع يُسمَّى غرورًا على التّوسّع، والخدع مرجع يُستر عنه وجه الأمر"[5].

قال ابن عطيّة: "المكر هو أن تُدبِّرَ على الإنسان تدبيرًا يضرّه ويؤذيه، والخديعة هي أن تفعلَ بإنسان وتقول له ما يوجب أن يفعل هو فعلًا فيه عليه ضررٌ"[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38، 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 275، 274 بتصرف.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خدع).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 274، 273 بتصرف.
(6) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/283.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»